# فصل المقال فيما بين الخطابة والبلاغة من الاتصال والانفصال

**Abdelhafid RIH & Radouane ALASBA**

(Université d'El-Kenitra)

**Résumé**

L'origine de ces lignes n'est rien d'autre que le contraste entre l'éloquence et la rhétorique et leur relation au champ de l'argumentation, puisque certains confondent entre les deux notions sans chercher à scruter leurs compositions, leur buts et le sens propre à chacun des deux. Tout le problème consiste donc à cerner le contraste entre les deux notions dans le but de déterminer les composantes et les fins de chacune d'elles, car quelques uns ont pris l'habitude d'utiliser de façon interchangeable les deux termes, allant jusqu'à traduire le mot "rhetorica" par éloquence sans être attentif à la signification authentique et originelle propore à la rhétorique. Notre objectif sera donc d'interpeller le lecteur sur la nécessité de distinguer entre les deux et ne pas tomber dans l'erreur de quelques littérateurs qui ont cru à tort que l'éloquence est un genre de l'argumentation.

**ملخّص**

الدافع إلى كتابة هذه السطور إنما هو الاختلاف على البلاغة والخطابة ونسبتهما لمبحث الحجاج، ذلك أنّ البعض يمزج بين المفهومين، دون التحري في مكوناتهما وغاياتهما ومبنى ومعنى كل منهما فالإشكال في هذا الباب يحوم حول الفرق بين البلاغة والخطابة، لغرض تحديد مكونات وغايات كل منهما، ذلك لأن البعض دأب على تسمية الخطابة بلاغة وعلى جعل البلاغة خطابة، وتعود على ترجمة "الريطوريقا" بالبلاغة دون إعارة الانتباه للدلالة الأصلية والحقيقية في أول الوضع لمفهوم الخطابة لذا، فسعينا منصب على التنبيه إلى مخاطر المزج والانزلاق عند صهر الخطابة في البلاغة، والذي وقع فيه بعض أهل الأدب حينما اعتقدوا أن البلاغة جنسٌ من الحجاج

**Abstract**

The origin of these lines is nothing other than the contrast between eloquence and rhetoric and their relationship to the field of argumentation, since some confuse the two concepts without trying to scrutinize their compositions, their goals and their specific structures and directions. So the whole problem is to identify the contrast between the two concepts in order to determine the components for each of them, as some are accustomed to use the two terms interchangeably, going up translate the word "rhetorica" eloquently without being attentive to the specific authentic and original meaning of rhetoric. Our goal will be to challenge the reader to the need to distinguish between the two and not fall into the error of some writers who mistakenly believed that eloquence is a kind of argumentation.□

الدافع إلى كتابة هذه السطور إنما هو الاختلاف على البلاغة والخطابة ونسبتهما لمبحث الحجاج، ذلك أنّ البعض يمزج بين المفهومين، دون التحري في مكوناتهما وغاياتهما ومبنى ومعنى كل منهما . فالإشكال في هذا الباب يحوم حول الفرق بين البلاغة والخطابة، لغرض تحديد مكونات وغايات كل منهما، ذلك لأن البعض دأب على تسمية الخطابة بلاغة وعلى جعل البلاغة خطابة، وتعود على ترجمة "الريطوريكا" بالبلاغة دون إعارة الانتباه للدلالة الأصلية والحقيقية في أول الوضع لمفهوم الخطابة. لذا، فسعينا منصب على التنبيه إلى مخاطر المزج والانزلاق عند صهر الخطابة في البلاغة، والذي وقع فيه بعض أهل الأدب حينما اعتقدوا أن البلاغة جنسٌ من الحجاج ، لتضمنها وجهين: تزييني وإقناعي، وأن المحسنات عندما توظف في الإقناع تسمى حجاجا، على اعتبار أن هذه الجزئيات حينما توظف في الكل الذي هو الخطابة تصبح بدورها كلا للكل، وهو ما لا نسلم به، لأن ما يعتقد أنه بلاغة الحجاج ليس في حقيقة الأمر سوى خطابة. ++ وما نلحظ على هذا النمط من الكتابات هو الارتياب والتردد، إذ يوظفون تارة البلاغة محل الخطابة ، وتارة يستدركون ويجعلون الخطابة مكان ما اعتبروه في البدءِ بلاغة . أما اقتناعنا [1] فينصب على اعتبار البلاغة أداة، يتوسل بها المنطقي والخطيب والعالم والشاعر والأديب، إلا أن كلا منهم ينهل من مباحثها بحسب غرضه وبقدر حاجته ؛ فهذا الشاعر تجده يكثر من المحسنات البلاغية ويسعى لتزيين قصيدته وتنميق ألفاظها لغرض إمتاع المتلقي ببهائها، وهذا العالم يتوسل بالبلاغة لغاية إيراد نظريته، بالقدر الذي تقتضيه تلك النظرية من ألفاظ وصور، وهذا المنطقي ينهل منها ما يتلاءم مع طبيعة المبحث الساعي للنظر فيه والتعبير عن فحواه ؛ فإن كان يقينا اقتصر فيه على ما يلائم مبحثه، وإن كان احتمالا – جدلا أو خطابة - استزاد من ذلك بقدر الحاجة لأداءِ الغرض الذي هو الإقناع . "فالخطيب" حينما يستخدم الاستعارات في الخطابة، فلا يفعل ذلك لأجل الإمتاع، وإنما يفعل ذلك لأجل الإقناع (...) إنها وسيلة لا غير" [2]، أي أن الاستعارات البلاغية تستثمر كوسائل مساعدة للإقناع، وفي السياق ذاته يقول بيرلمان: "إن الخطيب يعبئ كل الإمكانات التي تتيحها اللغة، متجها نحو غرضه الرئيسي ألا وهو الإقناع "[3]. فالمقومات اللغوية يُتوسل بها بها فقط لأجل أداءِ الغرض أُقصى للخطابة وهو تحصيل القناعة في النفس. وأبرز آليات الإقناع الصناعية في الخطابة الضمير، لذا، كانت البلاغة أداة لتلفظ القول المقنع، وهي سابقة على الخطابة كما تسبق كل ممارسة أي تنظير، لأن البلاغة مقترنة بعنصر الممارسة وإنجاز القول، والخطابة مرتبطة بعنصر التنظير وبناءِ القواعد والمبادئ التي يستند إليها فن الإقناع.

---

[1]- نشير هنا إلى أننا اليوم وبتقدم الدراسات حول كل من العلوم المضبوطة والعلوم الإنسانية ، قد وقع الاتفاق حول عدم وجود صرامة مطلقة أو براهين بالغة في اليقين، لذا فإن هذه القناعة نابعة من الاعتقاد ، وأن الاعتقاد يفسح المجال للاستزادة ، ويترك الباب مفتوحا أمام التصويب وتبادل المعارف، لا غلقها باعتبارها الحق الذي لا حق غيره

[2]- الوالي محمد ، "بلاغة الحجاج"، مجلة علامات، العدد5، 1996.

[3]- نفس المرجع.

وعليه، فإن الاختلال في عدم التمييز بين المفهومين، راجع في اعتقادنا لأربعة عناصر، وهي: الترجمة، والاستناد إلى قاعدة الترادف، وعدم الإلمام بالمحتوى المنطقي للخطابة، ثم عدم الاكتراث بوظيفتي كل منهما. وسنوضح اثنين في هذا المدخل ونترك الباقي للمتن.

## أ- في تهافت الترجمة[1]:

إنّ الحقل الدلالي والمعنوي لترجمة مصطلح الخطابة " Rhétorique" لا يطابق في الأعم الحقل الذي تبنيه كلمة بلاغة في السُّنن العربية، وإن كنا نظطر دائما عن خطأ أو عن صواب إلى المطابقة في الترجمة بين الكلمتين"[2]. وفي معجم روبير يحيل لفظ "Rhétorique" على الصناعة المتعلقة بالخطيب. كما أن مختلف الترجمات، القديمة منها والحديثة، لكتاب الريطوريكا، انتقت مصطلح الخطابة لحسن دلالته على المضمون. أما المؤلفات القديمة البانية لصرح علم البلاغة، فتحصر وظيفتها في الإيجاز والإفصاح عن المعنى السليم بلفظ بديع، ومحاولة الإبانة عن الدلالات وإزالة اللبس والغموض عن الألفاظ ، وليس الإيجاد أو الترتيب اللذان يعدان من العناصر الضرورية للخطابة إلى جانب عنصر العبارة والأسلوب المتضمن للآليات البلاغية، وهو عنصر ضمنه أرسطوا في الكتاب الثالث من مؤلف الريطوريكا، والذي يعنى باللفظ والمعنى وطرق التأليف القاصدة للسلامة التركيبية والصحة الدلالية ، لذا كانت و وظيفتها محددة في إخراج ما بالقوة إلى الفعل؛ أي إخراج تلك التقنيات والأدلة التي تمت صياغتها في خطوتي الإيجاد والترتيب إلى التعبير من خلال فصاحة القول.

كما يبدو أن ترجمة الريطوريكا بالبلاغة لدى بعض أهل الأدب ، بنيت على فهم معين لعلاقة الجدل بالخطابة، على اعتبار أن: "التوسيع الذي حظي به الجدل، الذي أصبح يشمل الاستدلالات الصحيحة كما يشمل فن العثور على الحجج وتقويمها، قد جرد البلاغة الأرسطية من جز أين أساسيين وهما الإيجاد والترتيب، ولم يترك لها إلا العبارة [أو الأسلوب] أي أشكال اللغة المزخرفة"[3]. يفيد هذا أن عنصري الإيجاد والترتيب قد ألحقا بالجدل، وبالتالي ألحقا بالمنطق، ولم يبق للخطابة إلا عنصر التعبير أو الأسلوب، لذلك فهي أقرب للأدب وللبلاغة منه إلى المنطق، فجاز ، حسب هذا التأويل، أن نسمي الخطابة بلاغة وأن نصهر المفهومين. لكن إلى أي حد يمكن التدليل على هذا القول؟

---

[1]- يعتبر كل من الأستاذ الوالي والأستاذ العمري "البلاغة أو الخطابة مقابل الكلمة الفرنسية، Rhétorique فبالنسبة للأستاذ الوالي ، أنظر هوامش مقاله : من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات، في مجلة فكر ونقد، العدد 8. أما بالنسبة للأستاذ العمري، أنظر كتابه، "بلاغة الخطاب الإقناعي"، أفريقيا الشرق، ط 2002، ص 19.

[2]- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف، حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، بدون تاريخ،ص:11- 12 ويشير صمود إلى أنه أيضا يقع في هذا الخلط، ليحسم ترجمة المفهوم بالبلاغة.

[3]- الوالي محمد، من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات، مقال بمجلة فكر ونقد، العدد 8، 1998.

محصول القول هاهنا، أن ترجمة مفهوم الريطوريكا بالبلاغة، أدت إلى الوقوع في انزلاقات جرت مبحث البلاغة للحجاج وهو عمق الإشكال في هذا المقال.

## ب - في فساد الترادف بين البلاغة والخطابة :

هل للترادف وظيفة داخل اللغة تمكن من إنتاج معنى صحيح؟ وإلى أيِّ حدٍّ يصدق الترادف في اللغة عموما وفي البلاغة والخطابة خصوصا؟ وهل الأصل في اللغة التباين أم الترادف؟

تأرجحت آراءِ الدارسيين حول وظيفة الترادف ومدى نجاعته في اللغة بين مثبت ومنف، إلا أن الدارس المنطقي لمكون الدلالة في اللغة، وبالخصوص لدلالات الألفاظ المترادفة، سيميل إلى التأكيد على التراتبية التي يقتضيها المعنى في الألفاظ، وضرورة الوقوف على درجات المعاني الدالة بحسب دلالة تلك الألفاظ. فالتباين في الألفاظ ههنا هو في الصفة وفي الدرجة وفي الحدة وفي التقديم وفي التأخير...، وهذا كله يصير منعكسا على المعنى لا محالة. ولعل أبرز من يصدقنا القول، ابن فارس في مؤلفه **الصاحبي**، حيث يرى أن تسمية الشيءِ الواحد بأسماءِ مختلفة غير ناجع في مقام اللغة، إذ "يسمى الشيءِ الواحد بالأسماءِ المختلفة نحو؛ السيف والمهند والحسام؛ والذي نقوله في هذا: أن الإسم واحد وهو "السيف" وما بعده ألقاب وصفات، ومذهبنا أن كل صفة منها معناها غير معنى الأخرى(...) إنّ في قعد معنى ليس في جلس(...) إن في كل واحدة منها معنى ليس في الأخرى" [1]. وذكر العسكري أن "اختلاف العبارات والأسماءِ يوجب اختلاف المعاني (...) وكما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين، فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان يدلان على معنى واحد" [2]، أي أن اختلاف اللفظ ومكوناته يوجب اختلاف المعنى، وأن السبب راجع إما لتجنب الإطالة أو الخروج باللفظ عن غير مقصوده، كما هو حال البلاغة مع الخطابة. وذهب السيوطي في "**المزهر**"، إلى أن التباين هو طبع الأفعال كـ "ذهب وانطلق، قعد وجلس، رقد ونام" [3]. لذا، يتبين أن **الأصل في اللغة التباين** وأن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

### 1 - في دلالة البلاغة :

اقترنت البلاغة العربية، بالصور والألفاظ والمعاني وحسن استثمارها في الشعر والنثر وفي الخطب والرسائل، فكان العرب "يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنن في معارضه البليغة" [4].

### 1.1- المعنى اللغوي للبلاغة :

---

[1]- ابن فارس أحمد "الصاحبي"، المكتبة السلفية، القاهرة، ط 1910، ص65- 66.

[2]- أبو هلال العسكري "الفروق اللغوية تحقيق؛ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة بدون تاريخ ص:23

[3]- السيوطي جلال الدين، "المزهر في علوم اللغة"دار التراث "، تحقيق المولى بك ، وعلي لبجاوي ، وأبو الفضل إبراهيم، ط 3، 2008، ص:404

[4]- شوقي ضيف "البلاغة تطور وتاريخ"، دار المعارف، الطبعة التاسعة، ص: 13.

يحددها ابن منظور بالقول: "والبَلاغةُ: الفَصاحةُ (...) ورجل بَلِيغٌ وبلغ وبِلْغٌ: حسَنُ الكلام فَصِيحُه يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمعُ بُلَغاءُ، وقد بَلُغَ، بالضم، بَلاغةً أَي صار بَلِيغاً. وقولٌ بَلِيغٌ: بالِغٌ وقد بَلُغَ. والبَلاغات: كالوِشاياتِ"[1]. ويقول ابن الأثير: "وأما البلاغة فإنّ أصلها في وضع اللغة من الوصول والانتهاءِ، يقال: بلغت المكان، إذا انتهيت إليه، ومبلغ الشيءِ منتهاه. وسمي الكلام بليغامن ذلك، أي أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية".

## 2.1- الدلالة الاصطلاحية للبلاغة:

تنوعت اصطلاحات البلاغة، وكلها ترمي إلى الإيجاز، وحسن الإفهام وتجنب سوءِ الفهم، والتوسل باللفظ السهل الجزل، وحسن تأليف الكلام بحسن الدلالة على معانيه، من خلال القصد وإصابة المعنى، والابتعاد عن الإطناب. وآلياتها: "اللفظ والخط والإشارة والدلالة"[2].

وللاستزادة في الإيضاح نستعير قول العتابي في جوابه عن سؤال ما البلاغة؟ فقال: "كل من بلغك حاجته وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ"[3]، "**وقيل لأرسطو طاليس ما البلاغة؟ قال: حسن الاستعارة**"[4]. ووظيفتها أن " تنهي المعنى إلى قلب السامع، فيفهمه"[5]. كما أن "**البلاغة هي القول** المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام وفصاحة اللسان"[6]. ويرجع سوءِ الصنعة في البلاغة إلى "سوءِ التقسيم وفساد التفسير وقبح الاستعارة والتطبيق، وفساد النسج والسبك"[7].

البلاغة إذن وصل المعنى باللفظ، ولما كانت الألفاظ كثيرة متعددة، ولما كان المعنى الواحد يعبر عنه بغير اللفظ الواحد، فإنّ مهمة البلاغة أن تربط بين المعنى ولفظه، أو قل أن تبلغ المعنى باللفظ، أو هي وصل المدلول بالدال. فإذن، مدار البلاغة على اللفظ والمعنى، إذ البليغ من ينقدح في نفسه المعنى، فيتخير له اللفظ، ثم يلقيه إلى السامع (أي اللفظ)، وهو مطالب بأن يفك المعنى من اللفظ، إذ لما كانت المعاني لا متناهية، فإنه ما كان ليحصل الفهم بلا متناه، وإنما يحصل بضديده، أي حصر المعنى أو القبض عليه.

## 2- تعريف الخطابة :

2.1- **لغة :** من "الخطبة، مصدر الخطيب، وخَطَبَ الخَاطِبُ على المنبر، واخْتَطَبَ يَخْطُبُ خَطَابَةً، واسم الكلام: الخطبة (...) وذهب أبو إسحق إلى أن الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسجّع، ونحوه.

---

[1] ابن منظور "لسان العرب"، تصحيح؛ أمين عبد الوهاب، محمد العبيري، دار إحياء التراث العربي، الجزء الأول، ص:487.

[2] ابن عبد ربه العقد الفريد، تحقيق، عبد الجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، ط: 1983.ص: 125.

[3] العقد الفريد ص: 126.

[4] العقد الفريد الجزء الرابع، ص : 272.

[5] العسكري أبو هلال، "الصناعتين"، تحقيق محمد لبجاوي، ومحمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، ط1، ض 6.

[6] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق طه حسين، دار الكتب العلمية، ط1980، ض 76.

[7] نفسه، ض 44.

الجوهري: خَطَبْتُ على المنبر خُطْبَة بالضم، وخَطَبْتُ المرأة خِطبَة بالكسر، واختطب فيهما(...)"[1]. ويرى ابن وهب أن الخطابة لغة "مأخوذة من خطب أخطب خطابة .. واشتق ذلك من "الخطب" وهو الأمر الجليل، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم، والاسم منها خاطب مثل راحم .. وكذلك لا يسمى خطيبا إلا من غلب ذلك عليه وعلى وصفه وصار صناعة له"[2].

### 2-2- في الاصطلاح :

تعد الخطابة في اصطلاح أهل المنطق، "صناعة تتصرف فيها الصناعة القياسية بمواد من السياسة وأمثالها وعلى هيئة كالجدلية والسفسطائية" [3]. فهي صناعة قياسية "غرضها الإقناع في جميع الأجناس العشرة، وما يحصل من تلك الأشياءِ في نفس السامع من القناعة هي الغرض الأقصى بأفعال الخطابة"، فهنا يبين الفارابي حد الخطابة ومكوناتها وهدفها. أما قوله صناعة قياسية، فلاعتمادها على الضمائر والتمثيلات، إلا أنّ الضمير أقوى ههنا من التمثيل. أما حدها فهي صناعة "Théchné" أي معرفة نظرية تقتضي قوانين وآليات وأدوات منظمة، تعتمد على صور القياس الخطبي. أما هدفها فهو تحقيق الإقناع وإفادة الظن وتكريس الاعتقاد، وإذعان السامع لتحصيل القناعة. وتكون الخطابة في "اعتقاد صدق ما يمكن كذبه" [4] أي في ما هو موضع نزاع، وفي جنس الترجيح والاحتمال.

### 2-3- موضوعها :

تتعدد مواضيع الخطابة، لتشمل مختلف المعارف والفنون والعلوم، وكل ما من شأنه أن يكون موضع نزاع، لذا كانت "المنازعة في كون الشيءِ أولا كونه هي منازعة عامة لجميع الأنواع الخطابية" [5]، أي أنّ الخطابة تخص الأمور التي تكون محل نزاع، بخلاف البلاغة التي تفتقد لعنصر الدعوى. فهي ملكة تنظر في كل ما ه و مقنع في الأجناس الاستشارية والمشاجرية والمشاهرية. أما مجالها فهو القيم الجمالية والأخلاقية والمنطقية.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ض 135.

[2] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ض 95 – 96.

[3] ابن سينا، "الشفا"، ج 8، "الخطابة"، تحقيق، محمد سليم سالم، ض 58.

[4] Al -Farai : deux ouvrages inédits sur la réthorique. Preparée par : j. lanchade et m. grignaschi. Dar -machreq; 1971; P: 30.

[5] ابن سينا منطق الشفاء، الخطابة، ض 5.

### 3 - أسس البلاغة ومقوماتها :

في مستهل العصر العباسي، بدأ إيلاءِ العناية بالترجمة والانفتاح على ثقافات أخرى، فنالت البلاغة قسطا من هذا الاهتمام، عبر الاعتداد ببعض آليات البحث التي ورثوها عن اليونان، فتم التفطن أولا للمهمة البيانية للغة.

### 3□1 - في أقسام البلاغة :

#### أ– علم المعاني :

ويعنى بالبحث في تركيب الكلام وما يتصل باستحسان اللفظ أو استهجانه. "وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب، جاريا مجرى اللازم له، لكونه صادرا عن بليغ. أي يعنى بأحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"[1]. وقد حصره السكاكي في ثمانية أقسام.

#### ب - علم البيان :

"معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام ، لتمام المراد منه. وينظر في المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها"[2]، ومن المجاز تتفرع الاستعارة والكناية والتشبيه.

#### ج– علم البديع :

وهو تزيين الألفاظ بألوان بديعية من الجمال اللفظي والمعنوي . يتحدد الجمال اللفظي في التجنيسس بأنواعه، أ ما المعنوي فيتحدد في الجمع بين المتضادين وهو الطباق بتعبير المحدثين [3]، والجمع بين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما وهو "المقابلة"، أو "أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب"[4] ثم المشاكلة وهي "أن تذكر الشيءِ بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقوله -تعالى- "صبغة الله"[5]، ثم مراعاة النظير أو الجمع بين المتشابهات بأنواعه، ثم المزاوجة. "وهي أن تزاوج بين اللفظين في الشرط والجزاءِ، ويحوي البديع أيضا اللف والنشر، ثم الإيهام، وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتوجيه

---

1- القزويني جلال الدين، التلخيص في علوم البلاغة، شرحه عبد الرحمن البرقورقي، دار الفكر العربي، ط 1، ص 37.

2 - المرجع نفسه، ص 417.

3- وفيه طباق الإيجاب وهو ما لم يختلف فيه الضدان، وطباق السلب، وهو ماختلف فيه الضدان، وذلك كله يكون أما في الإيجاب أو السلب انظر البلاغة الواضحة، تأليف، علي الجارم، ومصطفى أمين دار المعارف، لبنان، ص 281.

4- البلاغة الواضحة، ص 285.

5- السكاكي ص 424.

وسوق المعلوم مساق غيره، وكذلك الاعتراض ويسمى الحشو، ومنه الاستتباع، ومنه ثم الالتفات وكذا تقليل اللفظ ولا تقليله[1].

إن ما نخلص إليه في هذا المستوى، هو أن البلاغة إنما وظيفتها العناية باللفظ والمعنى والوقوف على إخراجهما المخرج الحسن في الهيئة البديعة باللفظ المناسب لذلك المعنى، أما وظيفة الخطابة إنما هو الإقناع. وإفادة المعنى وفهمه وبيانه عبر نظمه وإجادة تركيبه ، ليست البتة تفيد الإقناع، لأنه إن حدث وأقنع القول البليغ دون نية لحصول ذلك الغرض فهو إقناع عرضي، يغيب عنه عنصر القصد، وهو الذي يحضر في هم الخطيب بدءا وختما، لأنه لا يدخر جهدا في حسن استثمار آلياته الصناعية لذلك الغرض. لذا ما فتئت البلاغة تكون أداة الخطيب التي بها يخرج أدلته من القوة إلى الفعل. فكانت إذن، موجهة لاستدراج الانفعالات والأهواءِ خاصة، وهي قوة تنضاف لقوة الإقناع التي هي سليلة الخطابة.

## 4 - أسس الخطابة ومقوماتها :

قد عَلِمتَ أنّ الخطابة قوة أو ملكة يصار بها إلى الاكتشاف النظري لِمَا من شأنه أنْ يكون مقنعا في موضوعٍ موضوعٍ ، ولما كانت الخطابة إنما تأتلف من ثلاث: الخطيب، والمخاطب، والخطاب، وكانت أجناس الخطابة أو قل مصادر الأدلة ثلاثاً: المشاجري، والمشاوري، والمشاهري، فإذن أنواع أو مواضع الخطابة الخاصة ثلاث: موضع المشاجرة أو موضع الواقعي وغير الواقعي أو موضع العدل والجور، وموضع المشورة أو موضع الممكن والمستحيل أو موضع الخير والضار، ثم موضع المشاهرة أو موضع الأقل والأكثر أو موضع القبيح والجميل.

ثم إنه لما كان الموضع ما منه تؤخذ الحجج، ولأنه لما كان ذاك الذي ينشئ قولا خطابيا، قد لزمه أولا أنْ يعلم الجنس الذي فيه موضوعه، وأن يبتدر ثانيا فيبتدع الحجج الكفيلة بإقناع السامع واستمالة خاطره وتحريك عواطفه، وأن يقصد ثالثا إلى ترتيب أجزاءِ الخطبة وسرد أدلتها على طريق نظام واحد، وأن يروم رابعا إلقاءِ خطبته بما يليق من حسن اللفظ وجودة المعنى وبلاغة الصورة من تشبيه واستعارة وغيرهما... فإنه قد لزمنا أن ننصرف إلى فصل القول في أجناس الخطابة وأصولها.

### 4-1- أجناس الخطابة أو مصادر الأدلة :

- **الخطبة المشاجرية** : إنها الخاصة بالمحاكم القضائية والدعاوى الشرعية.

- **الخطبة المشاورية** : إنها خطبة النصيحة والإشارة إلى القيام بالفعل لخيره أو الامتناع عنه لشره.

---

[1] السكاكي، ص من 224 إلى 229.

- **الخطبة المشاهرية :** هي خطبة الآكورا أو الساحة العامة، سبيلها أن تثبت الفضيلة للممدوح، والرذيلة للمذموم.

فإذا انتهى الواحد منا إلى حصر الجنس الخطابي الذي سيكون فيه قوله، فعلم عند ذلك المواضع خاصها ومشتركها، وجب أن يفرغ إلى بناءِ خطبته، فيبتدع حججها ويرتبها فيلقيها. وتلك هي الإبداع L'invention، والترتيب La disposition، والإلقاءِ L'élocution. فلنصر الآن إلى فصل القول فيها قائلين:

إنّ القول الخطابي عند أرسطو قول يقصد به الإنسان في كليته: عقله وانفعاله [1]، وذاك وجه الخلاف بين هذا القول والقول الجدلي الذي إنما قصد إلى العقل فقط، إذ الانفعالي في القول الخطابي ركن من أركانه؛ إلا أن خطابة أرسطو هي خطابة استدلال أكثر منها خطابة مشاعر [2]؛ فصناع الكلام دأبهم أن يستخدموا مسائل خارجة عن ماهية الموضوع، فيغفلون استخدام دلائل متخصصة. إنّ جديد أرسطو إذن أنْ هو أضاف العقلي إلى الانفعالي وأصار الأول العمدة والأصل في عملية الإقناع غاية الخطابة. فمن أراد الإقناع، وجب عليه أن يلزم عقليَّ الحججِ وانفعاليَّها، وهي عنده الإبداع L'invention.

2.4- **الإبداع أو المواضع :** ومداره على ثلاث، إذ لما كان الإنسان عقلا وانفعالا، وكان إنما يساس بذينك: العقل والانفعال، وكان الانفعال إما أخلاقا أو أهواءِ، فإنه قد ثبت أن الإبداع ثلاث:

1.2.4- **الدليل أو اللوغوس :** وهو إما إلزامي (قطعي) وإما ظني، ويغلب أن يسمى حجة. وتؤخذ الأدلة من المواضع. فمن طلب الإقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل. وهذه المواضع نوعان:

1.1.2.4 **المواضع الذاتية :** تستفاد من الموضوع ذاته، وهي: الحد، التجزيءِ ، الجنس والنوع ، العلة والمعلول، الظروف، التقابل، التنافر، المقارنة، وهي قد تكون بالمثل وبالتضاد.

2.1.2.4 **المواضع العرضية :** تستفاد من مصادر خارجة عن الموضوع، وهي المسماة عند شيشرون الشواهد. وتقوم هذه المواضع على السلطة، وهي نوعان:

- السلطة الإلهية كالقرآن، والإنجيل، والتوراة....

- السلطة البشرية، كالقوانين الوضعية، والحكم، والعوائد....

---

[1]- هشام الريفي، عن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، ص 264.

[2]- Roland Barthes, L'Ancienne rhétorique, in communication, volume 16, 1970, p :179

### 2.2.4- الإيتوس أو الآداب [ الأخلاق ] :

إنه لما لم يكن غرض الخطابة اليقين المفضي للحق، وكان هو الإقناع، فقد صير إلى اعتماد ما شأنه أن يحقق الإقناع. فإنّ المرءِ قد يحصل له الإقناع بغير ضمير وتمثيل، نعني بغير دليل، أي بالمؤثرات العاملة عمل الإقناع؛ وهي أخلاق الخطيب وأخلاق السامعين وآداب الخطاب نفسه. إلا أنّ الآداب وإنْ تنوعت بين آداب الخطيب والمخاطبين والخطاب نفسه، فإنها في حقيقتها عائدة إلى الخطيب وحده، وبيان ذلك أن نقول أن مراعاة الجمهور وقدراته والتوجه إلى الناس بما يفهمون، ثم اختيار القول والإجادة في نظمه، إنما هي أمور انفرد بها الخطيب واختص. إذن، مدار الأمر هاهنا على الخطيب أو الإيتوس Ethos، ومن آدابه: الاستقامة، والحكمة، والحسنى، والتواضع. فمن استقام، استقام له المخاطبون، وصدق الخطاب؛ ومن حكّم العقل، حكَم الخطاب والمخطوب فيهم؛ ومن أحسن، عامل المستمعين بالحسنى، فأسمعهم ما يروقهم ويرضيهم؛ وأخيرا من تواضع، رفع الناس مقامه واستمرؤوا كلامه. يقول أرسطو: «أما الخطباءِ فقد يوحون بالثقة لأسباب ثلاث هي: الفطنة والفضيلة والإحسان»[1].

### 3.2.4 الأهواء أو الباثوس :

نقول أنه لما كان الكائن الإنسي جسما ونفسا، وكانت النفس ثلاثا: النفس العاقلة، والنفس الشهوانية، والنفس الغضبية؛ وكان الإقناع أنفع للعاقلة دون غيرها، فإنه قد استبان أنّ الشهوانية والغضبية إنما تستثاران أكثر بالانفعالات والأهواءِ، فليس يجدي كثيرا قولك مثلا: صلوا يا جماعة، فإنكم إن تصلوا، تدخلوا الجنة، تريد حملهم على الصلاة وترغيبهم فيها بطريق عقلي قياسي إقناعي، بل عززه بغير المقنعات من **المؤثرات الأوائل**[2] (**الأعوان**)، فاذكر لهم عذاب القبر وأهواله، وصف لهم نار جهنم وسعيرها، حتى إذا فرغت من هذا، عمدت إلى الجنة فأغدقت في وصفها، ثم تحدثهم عن أشجارها وأنهار خمورها وعسلها، وعن الحور العين، وأنت ترى أنك قاصد في كل هذا إلى أن تبث فيهم الخشية والرهبة أولا، ثم ترمي إليهم الأمان والطمأنينة ثانيا.

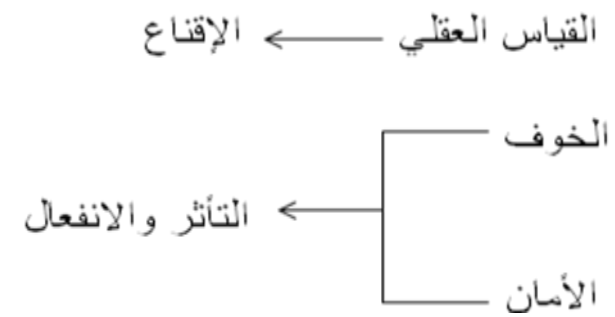




---

[1]- أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 2008، ص

[2]- سنميز بين مؤثرات الإبداع (الباثوس والإيتوس) بتسميتها **المؤثرات الأوائل (أو الأعوان بتعبير ابن سينا)**، وبين مؤثرات الإلقاء élocution بتسميتها **المؤثرات الثواني**

ومعلوم أن هذه الأنفس الثلاثة ليست تعمل منفردة، بل أمرها أن تعمل مجتمعة، فيكون لواحدة منها الرئاسة على الأخريين، وعلى هذين التبعية للرئيسة. فأيٌّ خاطب الإنسان إذن، إلا أقنع أو أعان عليه. ومادام حديثنا هاهنا عن النفس الشهوانية والغضبية، فإن الأولى تستثار أكثر بأن نحرك فيها المحبة أو البغض، والرغبة أو النفور، والفرح أو الحزن، أما الثانية فنثيرها أكثر بأن نبعث فيها الرجاءِ أو القنوط، والشجاعة أو الجبن، والغضب أو الحلم. وبيّن إذن أنّ هذه الانفعالات والأهواءِ إنما هي خصيصة المخاطبين وعليقتهم، بها يحملون على مزيد إقناع وقويه.

### 3-4 الترتيب La disposition :

بعد أن يفرغ الخطيب من تحديد الجنس الخطابي الذي سيكون فيه مقاله وحديثه، فإما مشاجري أو مشاوري أو مشاهري، ويجد المواضع المشتركة والخاصة، ينصرف إلى ترتيب أجزاءِ القول، وهي مواد الإبداع، الترتيب المناسب، جهة أن يكون أبين غرضا وأحسن وقعا في النفوس. ويشبه أن يكون الترتيب في الخطابة بمنزلة المصاف في العسكر، فلا نصرة لجيش لم يرع حسن النظام. فالخطاب إنما يصير مقنعا أكثر إذا كان محكما، تتبع فيه العبارة سابقتها وتنتج عنها، وتضبط تاليتها وتنتجها.

ويعتبر كوراكس أول من تحدث عن الترتيب ووضع أقسامه. فأجزاءِ الخطاب عنده أربعة هي: الاستهلال، وتقديم الأحداث، والمناقشة، والخاتمة. ونجد لحظة المناقشة عنده لحظة حجاجية يجعل لها صيغا استدلالية حجاجية نمطية، أشهرها عنده "الكوراكس [1] Le corax" الذي يحمل اسمه. أما أرسطو فيقول عن الترتيب: «لا يوجد في الخطاب إلا قسمان، لأنه بالضرورة يجب أن نقول أي شيءٍ هو الموضوع والبرهنة عليه... وإذن فالأقسام الضرورية هي **العرض والإثبات**، وهذان القسمان هما الأصل في كل خطاب، وعلى الأكثر، قد يشمل خطاب ما على مقدمة وطرح قضية، والإثبات بالدليل، وخاتمة» [2]. بين إذن، أن الأصل في الترتيب عند كوراكس وأرسطو أن تعرض القضية وتثبتها بالدليل أو البرهان. والدليل عند أرسطو الإضمار والتمثيل. ولذلك ذهب البعض إلى أنّ العمدة في الترتيب هو الإثبات.

### 4-4 — الليكسيس أو البلاغة [3] :

يقول أرسطو في الكتاب الثالث من الخطابة: «إنه لا يكفي أن نملك الحجج بإيجادها وإنتاجها، بل لا بد كذلك من إجادة العبارة عنها وتحسينها وتقديمها كما يجب أن تعرض. وقد أعطينا أولا باتباع المجرى

---

[1]- Olivier Reboul, Introduction à la rhétorique, PUF, 1991, p: 15.

[2]- أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 2008، ص 222.

[3]- وهي الترجمة التي اخترناها لكلمة Elocution، تعود إلى اقتناعنا بأنّ اللغة العربية أسبق من اللغة اللاتينية، وأنّ هذه قد نهلت من العربية ما لا يستهان به من الكلمات، ليس المقام هاهنا مقام إيراد الدليل العلمي عليها، فليطلب من مظانه؛ ولذلك فإنا نعتقد أنّ اللاتين قد أخذوا من العربية كلمة الإلقاء فجعلوها élocution.

الطبيعي المرتبة الأولى في أبحاثنا لما ينبغي بطبعه أن يكون في المحل الأول، أعني ما يكسب الأشياءِ ذاتها خاصيتها الإقناعية، ثم يأتي بعد ذلك في المحل الثاني القيمة التي يضفيها عليها أسلوب التعبير» [1]. يستفاد من هاهنا أنّ أرسطو قد أكمل القول عن **المقنعات**، عنينا بها الإبداع والترتيب، وبقي له أن يكملها **بالمؤثرات**، وهي الإلقاءِ. إنّ الخطيب إذن محتاج في صناعته إلى ما هو مقنع وإلى ما هو مؤثر. المقنع فرضه أن يقصد العقل وينحو إليه، أما المؤثر فشأنه أن يهدف إلى العاطفة ويطلبها. ولما كنا قد فصلنا الحديث في الإبداع والترتيب أو قل المقنعات، وكنا قد دعونا مؤثرات الإبداع، وهي الآداب والأهواءِ، **بالمؤثرات الأوائل** فإنه آن الوقت لبيان **المؤثرات الثواني** أو قل الإلقاءِ ونشقق القول فيها، فنقول إنه لما كانت المؤثرات الثواني الإلقائية ليست تخرج عن كونها محسنات لفظية أو بديعا ومعاني وبيانا، وكان علم البديع وعلم المعاني وعلم البيان إنما هي البلاغة، فقد وجب أن نقول إنّ الإلقاءِ أو المؤثرات الثواني لهي لحظة توظيف البلاغة واستخدامها. إذن، في مرحلة الإلقاءِ نكون قد انتقلنا إلى البلاغة، وهي التي أخبر عنها السكاكي أنها هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التركيب وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، وهي شاملة للألفاظ والمعاني بتعبير ابن الأثير.

قد انتهينا إذن، إلى معرفة أنّ الإلقاءِ مبناه على البلاغة ومداره عليها، وإنّ ذا ما أومأ إليه رولان بارت إذ هو اعتبر الكتاب الأول من الخطابة كتاب المرسل أو كتاب الخطيب، والكتاب الثاني كتاب المتلقي أو كتاب الجمهور، والكتاب الثالث كتاب الرسالة أو اللغة ذاتها، لِمَا أنه فيه يبحث مسألة اللفظ والتركيب. فإذن كتاب خطيب، وكتاب مخاطبين، وكتاب خطاب.

إنّ جزأي الخطابة: الإبداع والترتيب إنتاج للأفكار من المقنعات وإيجاد، **وظيفتهما الإقناع**، أما الإلقاءِ فإنه التجسيد المادي للأفكار بواسط اللغة وإمكانياتها، **وظيفتها التأثير والتبليغ**. وإنه لما كان الأصل في اللغة الاستعارة والتجوز في تسمية الأشياءِ، وكانت الاستعارة بلاغة، جاز لنا القول إنّ اللغة تقوم على البلاغة؛ وإنه لما كان الإلقاءِ قد بني على اللغة، فإذن أساسه البلاغة.

وإذا تقرر أنّ البلاغة أساس الإلقاءِ وعمدته، فاعلم أنّ الإلقاءِ قد شاءِ له المعلم الأول أن يكون الوصل بين البلاغة والخطابة، بين الفني والصناعي، بين الأدبي والمنطقي. وليس هذا القول اجتهادا انفردنا به دون غيرنا، بل اسأل عنه روبول يجبك قوله: إنّ الإلقاءِ لهو محل اللقاءِ بين صناعة الخطابة والأدب [2]، ما داما يرتكزان معا على الأسلوب.

لقد كان الإلقاءِ غائبا عن خطابة كوراكس، إذ اتجهت عنايته إلى مستوى الترتيب، فتحدث عن الاستهلال، والقص، والاحتجاج، والاستطراد، والخاتمة؛ اهتم صاحبها فيها بخطابة المركب، خطابة الخطاب، لا خطابة

---

[1]- أرسطو، الخطابة، مرجع سابق، ض 179.

[2] - Olivier Reboul, Introduction à la rhétorique, Théorie et pratique, édition quadrige, 2011, p : 72.

السمة والوجه البلاغي [1]. لكن جورجياس أولى العناية كلها للإلقاءِ لما هو صرف الخطابة إلى ما تكون به العبارة جميلة ومحدثة للتأثير، وهو يحاول تطبيق المعايير الجمالية سليلة الشعر في النثر. ولا زال الخطباءِ من اللاتين ومن المحدثين وغيرهم يهتمون بمستوى الإلقاءِ حتى جعلوه الخطابة نفسها. وإنّ ذا منزع في الخطابة جورجياسي سفسطائي غير أرسطي، قد أحطت خبراً أنّ نسغه شعري، ولا أضر للخطابة من الشعر عند أرسطو، فهو الذي قال: «لا شك أنّ اللغة الشعرية ليست تافهة، ولكنها لا تلائم القول الخطابي» [2].

فإن هو اعترض معترض فقال: ولماذا تحدث أرسطو عن الاستعارة، والتشبيه، والمجاز... وهي أساليب بلاغية، ومن ثمة شعرية؟ نجيب بالقول، إنّ الخطابة غرضها الإقناع والتأثير، ولما كان الإقناع يحصل بالدليل، وأمر التأثير أن يحدث بالانفعالات والأهواءِ، وكانت هذه إنما يثيرها أكثر الصور المحسوسة أو المتخيلة، وكانت هذه تثير أكثر كلما كانت أغرب وأعجب، وكانت الخطابة إنما تثير وتحدث الانفعال بالصور اللغوية من تشبيهات واستعارات، وكان الإقناع دون التأثير عند العامة أعجز وأنقص، فإنه قد حق لأرسطو أن يعتمد التأثير سنداً للإقناع، وأن يستوسل آلاته، وهي المجاز والاستعارة والتشبيه، إذ بها يحصل التأثير، ويقع الانفعال، وتستثار الأهواءِ، وتؤجج العواطف؛ وهي، إنْ اجتمعت، كانت على الإقناع أقدر وأمكن، وهي منتهى الإفحام والإفعام. وبيان ذلك قول سهل بن هارون: «لو أنّ رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا، وكان أحدُهما جميلاً جليلاً بهيًّا، ولبّاساً نبيلاً، وذا حسبٍ شريفاً، وكان الآخر قليلا قميئا، وبادّ الهيئةِ ذميماً، وخاملَ الذكرِ مجهولاً، ثم كان كلامهما في مقدارٍ واحدٍ من البلاغة (...) لتصدّع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الذميم على النبيل الجسيم (...) فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، وظهر منه خلاف ما قدروه، تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكَبُر في عيونهم، لأنّ الشيءِ من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب، كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب، كان أبدع» [3]. وهذا حال الأسلوب وصفته، فبقدر ما يكون أغرب وأبعد في الأذهان، يكون أذهل وألذ، وشأن الذي استلذ الشيءِ واستعذبه، أن تنسيه اللذة والعذوبة الشيءِ، فينشغل بهما عنه، ويزهد بهما عنه، وأمره أنْ يَكُمَّ عَقلَه، ويستفتي شهوته؛ ولما كان هذا ديدن العامة، فَلتُقنَع ولِتَنفعِل.

فلنعد، ونؤكد أنّ مستوى الإلقاءِ ما كان له أن يختزل الخطابة، إذ هو بالمفرد بلاغة لا خطابة، وأدب لا منطق؛ أما من أراد الخطابة، فليتقدم ويعلم، بدِيّةً، أنها الضمير والتمثيل، وهما نوع من القياس، ومعرفة القياس هي جزءٍ من صناعة المنطق، فقد يجب أن يكون صاحب المنطق هو الذي ينظر في

---

[1]- هشام الريفي، عن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، ص 249.

[2]- أرسطو، الخطابة، مرجع سابق، ص 183.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، الجزء الأول، مكتبة الخانجي، الطبعة السابعة، 1998، ص 89.

هذه الصناعة[1]؛ ثم ليتقدم، تَثنِيَةً، ويعرف أنّ الخطابة قد زادت إلى تلك القوةِ، قوّةِ الضمير والتمثيل، قوةً ثانية هي قوة البلاغة يهرع فيها الخطيب إلى تنميق اللفظ وتزيينه، وإلى سبك العبارة سبكاً تشبيهيا أو استعاريا أو مجازيا.... فإذن مدار الخطابة على المنطق والبلاغة، والمنطق فيها أقوى وأولى، إذ كل خطيب بليغ وليس كل بليغ خطيباً.

وإليك هذه الخطاطة ملخصة جامعة لِمَا أسلفناه:

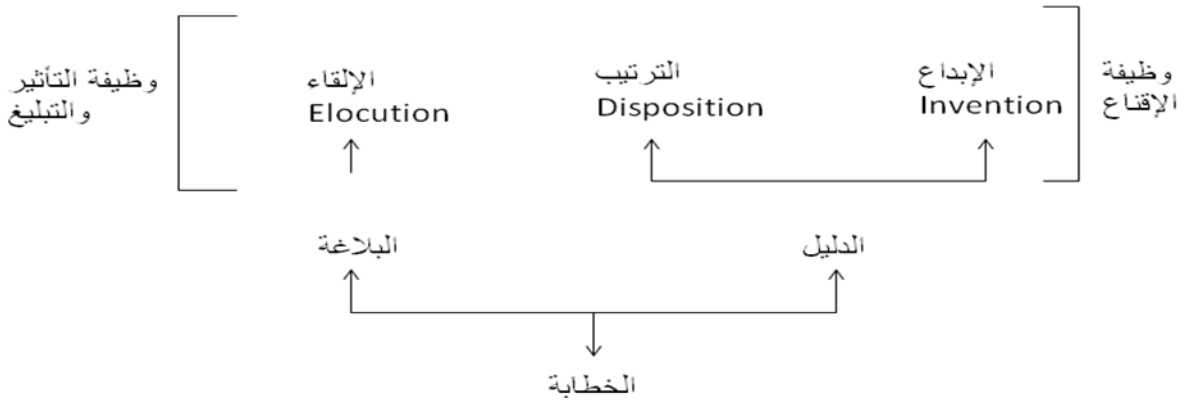




## 5 – دور المنطق في الخطابة :

هل تدخل الخطابة في المنطق؟ لعل الناظر إلى كتب المهتمين بأرسطو، يجدهم فريقين:

– **الفريق الأول** : الأمر عندهم أنّ الخطابة كتاب غير منطقي، ومستندهم الأول في ما ذهبوا إليه في اعتقادنا، قد بنوه على الكتب الواردة في الأورجانون، وهو تسمية لمجموع كتب أرسطو المنطقية، نجدها عند أندرونيكوس الروديسي المشائي، ومعناها الآلة في اللغة اليونانية القديمة. وجدير بالذكر هاهنا أنّ وسم المنطق الأرسطي بالآلة، محل اختلاف، فالمشاؤون Les péripatéticiens هم من نعتوه بالآلة، شأنه أنْ يعصم العقل ويجنبه وقوع الزلل. وأولئك الرواقيون أكدوا أنّ المنطق جزءٍ من الفلسفة، وليس آلة لها. وتنقسم العلوم عند أرسطو إلى: علوم نظرية، وعلوم عملية، وعلوم شعرية[2]، وقد جعل البعض الخطابة والشعر من العلوم الشعرية، وهو أمر ما وجدناه عند الحكيم، بل جل ما عنده تعريف للعلوم الثلاثة. وغلا بعضهم إذ عدّ الخطابة فنا شعريا، حتى زاحم أرسطو على كتابه وشاركه فيه الفهم، فنادى فقال الخطابة إنْ هي إلا الكتاب الثالث، أما الكتاب الأول والثاني فليس يدخلان في الخطابة، بل إنهما كتابان عن الجدل، ما دام مدار الأمر فيها على المواضع، وإنّ الجدل المواضع.

---

[1]- ابن رشد، تلخيص الخطابة، دار القلم، بيروت لبنان، ص 9- 10.

[2]- أرسطو، "منطق أرسطو"، نقل أبي عثمان الدمشقي، حققه وقدّم له عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 3962 ، الجزء الثاني، كتاب الطوبيقا، ص 688، 733.

- **الفريق الثاني:** الخطابة عندهم كتاب منطقي. وهذا ما هو عليه أغلب الفلاسفة المسلمين. يقول الفارابي: «وأما أجزاءِ المنطق فهي ثمانية: وذلك أنّ أنواع القياس ثمانية وأنواع الأقاويل التي يلتمس بها تصحيح رأي أو مطلوب في الجملة ثلاثة، وأنواع الصنائع التي فعلها بعد استكمالها أن تستعمل القياس في المخاطبة في الجملة خمسة: برهانية وجدلية وسوفسطائية وخطبية وشعرية»[1].

أما المتفلسفة من الغرب، كإميل بريي، فيقول: «لكن الكتابات المنطقية التي جمعت تحت اسم واحد هو الأورغانون (الآلة) لا تشتمل إطلاقا، رغما عن الظاهر، على عرض منهجي لهذا المنطق. ففي الظاهر، تتوزع هذه الكتابات بحسب عناوين فصول الموجزات المتداولة في المنطق: 1- المقولات، وتتضمن نظرية الحدود، 2- في التأويل، أو نظرية القضايا، 3- التحليلات الأولى أو نظرية القياس بوجه عام، 4- التحليلات الثانية أو نظرية البرهان، أي القياس ذي المقدمات الضرورية، 5- المواضع أو نظرية الاستدلال الجدلي والاحتمالي الذي لا تعدو مقدماته أن تكون ظنونا مقبولة بالإجمال، 6- الخطابة أو نظرية الاستدلال الخطابي أو الإضماري الذي يتم اختيار مقدماته بحيث تقنع السامع»[2]. ويؤكد أوكتاف هاملان في كتابه **نسق أرسطو** الفكرة نفسها، فيقول: «إنّ مؤلفات النسق الأرسطي التي تشكل المجموعة الأولى (المنطق) هي: المقولات، التأويل، التحليلات، المواضع وتبكيت الحجج السفسطائية، الخطابة والخطابة إلى الإسكندر»[3]. فقد ننتهي من هذا إذن ، إلى نتيجة أفادت أنّ الخطابة كتاب من الكتب المنطقية التي ألفها المعلم الأول، تروم الإقناع أولا، وتريغ التأثير فللإمتاع ثانيا.

## - الضمير أو القياس الخطبي :

وقد أفرد له أرسطو الأولوية إذ هو قال: «أما إذا وجدت القياسات المضمرة، فينبغي أن تستعمل المثالات كشهادات بتوظيفها كنتيجة الاستقراءِ»[4]. والضمائر أقدم من التمثيلات لأنّ بها تثبت التمثيلات. وقد التمس قوم إبطال العمل بالتمثيلات بضمائر، فأما الضمائر فلا يمكن إبطالها أصلاً[5]. وهو قياس ما، إنه القياس الخطبي يُصار فيه من الكلي إلى الجزئي، وإلى ترتيب مقدماته الترتيب الذي هو معتاد عند الجمهور مقبول. فالجمهور من الناس شأنهم أن يأتوا بالمقدمة الواحدة ويُقَفّوا عليها بالنتيجة، ويعملوا على إخفاءِ المقدمة الأخرى ويضمروها، إذ بهذا الإضمار يحصل الإقناع، لأنه إنْ أُظهرت المقدمة المضمرة بان كذبها.

---

[1]- الفارابي، إحصاء العلوم، حققه وقدم له وعلق عليه عثمان أمين، دار الفكر العربي، ص 63- 64.

[2]- إميل برييه، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول، الفلسفة اليونانية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1987، ص 226.

[3]- O.Hamelin , Le système d'Aristote, Librairie Félix Alcan, 1920, p : 26

[4]- أرسطو، الخطابة، مرجع سابق، ص 148.

[5]- الفارابي، الخطابة، مرجع سابق، ص 40- 41.

### - التمثيل أو الاستقراء الخطابي :

وقد جعله أرسطو تاليا للضمير لما هو قال: «وعندما تعوزنا القياسات المضمرة، فلا بد من أن نستخدم المثالات كبرهان لا أن تؤدي إلى الإقناع»[1]. وهو، كما بينا، استقراءٍ ما، إنه الاستقراءِ الخطبي يصار فيه من الجزئي إلى الجزئي بتوسط الكلي.

## 6 – دور البلاغة في الخطابة :

### 6-1- أهمية البلاغة :

حددنا في ما سبق المقومات الصناعية للقول الخطبي الهادف للإقناع، وفي هذا الموضع هدفنا تحديد المقومات اللغوية الهادفة للتأثير والإمتاع، لذا فإن نحن تفحصنا التسلسل التراتبي للخطاب الإقناعي، نجده مرتكزا على الدليل الذي يسعى الخطيب لإيجاده واكتشافة وانتقاءِ النافع منه لتأدية غرضه، وفي الخطوة الثانية ينحو الخطيب إلى اتجاه ترتيب الأدلة وحسن نسقها لئلا تظهر خسة بشعة فتحيد عن الغرض، وفي الخطوة الثالثة نكون أما م انتقاءِ جودة الألفاظ والعبارات المؤثرة قصد نسجها وتأليفها وإيصالها للمرام تكريسه. وعليه، ففي الخطوة الأولى نكون أمام الكفاءِة التدليلية للخطيب التي تحتاج تمرسا وانغماسا في المعيش، وفي الثانية، نكون أمام الكفاءِة المنهجية للخطيب، والتي تفترض قدرة في النسق والتنظيم ، وقدرة على تمييز درجات الأدلة التي تم إيجادها، أما الكفاءِة الأخيرة فهي الكفاءِة التبليغية ، المقترنة بمجموع المبادئ اللسانية التي تخص جانب اللغة في ارتباطها باللسان عامة، وبالبلاغة والأسلوبية خاصة. وفي هذين مدار حديثنا.

### 6-2- دور المحسنات في الإلقاء :

تشمل المحسنات في خطوة الإلقاءِ مختلف الصور والمحسنات البلاغية، شريطة حسن استثمارها بالكيفية التي يقتضيها السياق.

#### الاستعارة :

توظف غالبا في القياس التمثيلي وهي حسب أرسطو: استبدال لفظ بلفظ أو نقل اسم شيءٍ إلى شيءٍ آخر، فهي تفيد الإبدال والنقل. وقد حدد طبيعة هذا النقل في كتاب الشعر وهو نقل يتم إما من الجنس إلى النوع، أو العكس. إلا أن الإكثار منها يؤدي إلى الغموض ، وغيابها يبقي على الدور الحجاجي للخطاب ولا يؤثر فيه.

#### التشبيه :

وهو أحد وجوه الاستعارة، يقول أرسطو: "والتشبيه هو استعارة ما، إلا أنه يختلف عنها قليلا . . فالتشبيه هو استعارة لا تختلف عنه إلا في ضرب من التمثيل والترتيب المقصود، ثم إن التشبيه أقل لذاذة منها، لأنه

[1]- أرسطو، الخطابة، مرجع سابق، ض 148.

يعرض له أن يكون طويلا جدا" [1]. والتشبيه والاستعارة ههنا إنما يدخلان تحت المجاز ، وكلاهما يستثمر أساسا في القياس التمثيلي.

### 3-6 تراتبية الأسلوب في الإلقاء:

تتخذ العبارة بعد نسجها وسوقها في الخطاب أسلوبا ن حكم عليه بالبساطة أو بالرفعة أو بالوسط بينهما، ذلك أن **الأسلوب البسيط** إنما يلائم القول العلمي ، فتزيين وتنميق الألفاظ غير ذي أهمية عند العالم ، وبخلافه الخطيب، إذ يتوسل **الأسلوب المتوسط** الذي يلائم **القول الخطبي**، فالخطيب زاد صنعته في التبليغ هو التفنن في الإقناع بمعان تترك لدى السامع أثرا وتثير أهواءه وانفعاله، أما **الأسلوب الرفيع** فيلائم **القول الشعري** بالأخص، وفيه يتم الإكثار من الصور والمحسنات وبديع الألفاظ والمعاني ؛ ومعيار التمييز بين تلك الأساليب يتحدد في كمية استثمارها للصور البلاغية، وقد بين ابن رشد هذه المراتب بالقول: «أن تكون الألفاظ جيدة الإفهام و اللإبانة للمعاني. والثاني أن تكون لذيذة المسموع . والثالث أن تعطى في المعنى رفعة أو خسة(...)فلهذا كان النظر ضروريا لصاحب المنطق في الألفاظ الخطبية» [2].

نخلص إلى أن التقسيم الكلاسيكي للخطابة ، المبثوث في مؤلف أرسطو والمتمحور حول: إيجاد الأدلة ووترتيبها ثم إلقائها، أدى إلى إيلاءِ الاهتمام الزائد بالقسم الثالث للخطابة، إلى درجة كاد يهمل فيها بقية الأقسام الأخرى، مختزلين الخطابة في جزئها البلاغي الكامن في عنصر الإلقاءِ، وهذا ما يبين أن تاريخ الخطابة شاءِ «أن يجعل من هذا القسم الثالث **المساعد** أهم الأقسام، بل لقد نسي الناس شيئا فشيئا مكوناتها الأخرى واحتفظوا بهذا الجزءِ على أنه الكل، مما أحدث في تاريخ ممارسة الإنسان للظاهرة اللغوية تقاربا كاد يكون تطابقا بين الخطابة والأدب... وبهذا المعنى تحدثت الدراسات الحديثة عن الأسلوبية مسايرة لذلك المجاز العقلي .. والذي أصبح بموجبه الجزءِ مقصيا الكل قائما مقامه» [3].

ما يستفاد من هذا القول أن عنصر البلاغة في الخطابة استعمل **كعنصر مساعد** لإخراج العبارة الحاملة للأدلة من القوة إلى الفعل، وفي ذات السياق يخبرنا شوقي ضيف «أن هذا القسم الثالث من كتاب الخطابة لأرسطو يقابل ما سماه العرب بالبلاغة، وكان فهم السريان والعرب جميعا لهذا القسم من كتاب الخطابة، أدق من فهمهم للقسمين الأولين...(لأن) القسم الثالث فقد كان قسما عاما لا يختص بلغة ولا بأمة معينة، وقد وضع فيه أرسطو... الأصول البلاغية العامة للعبارة بحيث يمكن تطبيقها على جميع الآداب، يونانية وغير يونانية، ومن أجل ذلك اتسع تاثيره في البلاغة العربية ». وقد استفاد أرسطو في هذه

---

[1] - نفسه، ص: 209.

[2] - ابن رشد أبو الوليد، "تلخيص الخطابة"، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم – بيروت، بدون تاريخ، ص 249.

[3] - حمادي صمود، "أهم نظريات الحجاج"، ص 17 ولعل أشهر من اهتم بالتداخل بين الخطابة والأدب من الغربيين، نجد فارقا كيبيدي، في كتابه الخطابة والأدب، دراسات في البنى القديمة.

المقالة مما خلص إليه من نتائج في كتابه عن الشعر، لأنها كتبت بعد هذا المؤلف، إذ يقول: «والذي يجعل الأسلوب واضحا ... هو استعمال سائر الألفاظ التي أحصيناها في كتاب فن الشعر (الفصلان 22،20)»[1].

**7 – خطابة أم بلاغة:**

إنّ البليغ إما من يؤلف الكلام لغير مستمع، وهي مخاطبة النفس بالنفس، فيحضر البعد الإيصالي، وإما من يركب الكلام لمستمع قصد الإفهام والإقناع، فيحضر البعد الاتصالي أو التداولي. إنّ البلاغة إذن، القدرة على تأليف الكلام، فلذلك ترتبط هي بالنص، وإنْ هي تخطت ذلك إلى نقله إلى المستمع، زادت قوة وقدرة ثانية نسميها الخطابة. إذ يفترض في الخطيب أن يجمع بين قوتين أو قدرتين: قدرة البلاغة وقدرة الخطابة، الأولى سابقة والثانية تالية ، وهل القوة الواحدة كالقوتين ؟ فرض البلاغي معرفة أسرار اللغة وأوجهها، وأمر الخطابي أن يضيف إلى هذا، معرفة طبائع الناس وأحوالهم، والعلم بسياساتهم وقوانينهم ودينهم... ومعرفة طرق القياس... فليس تكفي اللغة وحدها الخطيبَ، وهي قد كفت البلاغي.

فتحديد وجوه التباين والاختلاف بين صناعة الخطابة وعلم البلاغة في هذا المقام، بات قاب قوسين أو أدنى، إذ بدا يتبدى تدريجيا. «فالبلاغة لم تنشأ كالخطابة نشأة فلسفية منطقية تحاول تصنيف الأقاويل بحسب قدرتها على قول الحقيقة، وإنتاج المعنى المفرد (...) لقد كانت الدواعي التي أدت إلى نشأ ة البلاغة مختلفة عن الدواعي التي أدت إلى نشأ ة الخطابة (...) وهي أن البلاغة نشأت أساسا في أحضان الشعر الذي همه تصوير المعاني، وإخراجها رائقة عذبة تسر الناظر وتخلب لب السامع »[2]. لذا كان إشكال مزج الخطابة في البلاغة غير مقترن بأصول الصناعة البلاغية، بل هو محدد في التأويلات التي صاحبتها. كما أن الخطابة قول صناعي آلته القياس ، والقياس قول منطقي مصدره العقل، والمنطق أداة للفلسفة التي تهتدي لإصابة الصواب أو الصدق بحسب الإمكان. أما البلاغة فمقترنة بمادة اللفظ وطرق نظمه إلى حين دلالته على المعنى، والنظم يقتضي الدربة بالنحو، والنحو يستوجب إدراك قواعد الإعراب، وهو آلة تقي اللغة من الزلل والعجمة والمعاني الوهمية. فيتبين لنا الفرق ههنا بين الاثنين في الآلة وفي المادة. لينجلي الإبهام ويتبين أنّ **البلاغة صنعة الدلالة والخطابة صنعة الدليل.**

فإذا كانت الخطابة صناعة قياسية تهم الدليل وكانت البلاغة **صناعة لفظية** تهم الدلالة، فإنه «من تعريف الخطابة يتضح لك الفرق بينها وبين الفصاحة والبلاغة، فإن الفصاحة والبلاغة تمكنان الإنسان من **تركيب المفردات وحسن التعبير**، ليبرز ما يكنه الفؤاد من المعاني والعواطف، أما الخطابة فتزيد على تلك القوة **قوة أخرى** بأن تلقنه **طرق الإقناع** وتمكنه من استمالة الخواطر وتوجيهها إلى أمر من الأمور، فلا غنى لها عن قوانين تدرك بها هذه الغاية »[3]. أما أرسطو فقد جعل الفرق بينهما فرق بين الفكر واللغة، إذ يقول

---

[1] أرسطو "الخطابة ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط 2008، ص 183.

[2] حمادي صمود ، أهم نظريات الحجاج، ص:18.

[3] لويس شنيخو "الخطابة "، ص:8.

في كتاب الشعر في باب الفكر واللغة "أما فيما يتعلق بالفكر، فلنرجع إلى ما قلناه عنه في مبحثنا "فن الخطابة" لأن طبيعته تدخل في هذا الفرع" [1]. وكأني بأرسطو يجعل تقنيات الفكر المؤلفة للدليل تقنيات خطابية وتقنيات اللغة المؤلفة للعبارة تقنيات بلاغية شعرية. حيث يقول بخصوص اللغة "وفرع من هذا الموضوع يعالج "ضروب النطق"، إلا أن هذا الأمر من المعروف، يخص فن **الإلقاء** ومحترفيه" [2]. إنه يميز- مثلا- بين الأمر والابتهال، والخبر والتحذير، والخبر والجواب وكل ما يدخل في هذا الباب" أي كل ما يدخل في باب البلاغة ومقوماتها. يؤكد هذا القول أن الأمور المتعلقة باللغة تهم باب البلاغة وما يدخل تحته من مباحث لسانية، أما الأمور المقترنة بالفكر فتدخل ضمن صناعة الخطابة، معتبرا أن صناعة الخطابة مقتصرة بالأساس على الفكر من خلال إنتاجه للدليل، لتأتي اللغة بقواعدها البلاغية وتقنياتها النحوية لتخرج ذلك الدليل.

فلنعلم إذن أن البلاغة نظم للكلم وتأليف للفظ وانتقاءِ لجودته وحسن هيأته [3] وكيفية ربطه ووصله بقرينه قصد نسج عبارة سليمة أو كلام موجز فصيح بيِّن مفهوم أقرب للوضوح منه إلى الغرابة والوحشية، وأنّ البلاغة عند استثمارها في الخطابة تقتضي آلة داخلية هي النحو وآلة خارجية هي النظم والتركيب وحسن موضعة الكلم، وهذا ما يشكل في النهاية العبارة التي تقتضي الصنعة الخطابية بمقوماتها المنطقية لإخراجها المخرج التدليلي.

وأبرز ما يعزب عن البلاغة هو عمود الخطابة الحد الأوسط ؛ فهي (الخطابة) صناعة تقتضي ضرورة تقنيات وآليات تجود بها قريحة الخطيب من ملكة الفهم والتعلم، وأن الخطيب يتوسل بها قصد البناءِ والتأليف، لكن ليس للعبارة بل للدليل، والعبارة والدليل ليسا بسيان، لأن العبارة مكونة من الألفاظ الدالة على المعاني، وبستلزم السلامة النحوية والدقة النظمية التأليفية، أما الدليل فمؤلف من القضية أو القضايا، إذ قوامه الحدود وهو محكوم بقواعد منطقية عند التأليف وقاصدٌ إلى الإقناع، وقواعد الدليل منطقية أما قواعد العبارة نحوية إعرابية. فالدليل قد يكون ممتعا وقد لا يكون الإمتاع دليلا. . لذا فنحن أمام خطابة الإقناع بالدليل أو الاستمالة بالتأثير. وهذه خطاطة تقريبية لهذا الفرق:

| الخصائص والمقومات | المستوى التدليلي | المستوى المنهجي | المستوى التبليغي | الغرض |
|---|---|---|---|---|
| الخطابة | الآليات والتقنيات الصناعية: القياس — | انتقاءِ الأدلة ترتيب الأدلة وتنظيمها | الإلقاءِ – البلاغة | الإقناع التأثير |

[1] أرسطو، "كتاب الشعر"، ص 176.

[2] -

[3] - نقصد بحسن الهيأة توافق الألفاظ بالسجع.

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | الاستقراءِ.<br>الضمائر والتمثيلات | | | |
| البلاغة | | انتقاءِ الألفاظ<br>إجادة التركيب<br>والنظم حسن<br>دلالتها على<br>المعنى.<br>توظيف الاستعارة<br>والتشبيه | التعبير باللسان<br>إجادة الأسلوب<br>الانضباط للقواعد<br>حسن إخراج اللفظ | البيان<br>الإفهام<br>الإمتاع |

**خاتمة:**

يتبين إذن من هذا التمييز بين الخطابة والبلاغة أن هناك فرقا في المضمون وفرقا في الغاية وفرقا في الآلة. فغاية الخطابة تعليم طرق الإقناع وكيفية ترسيخ الاعتقاد والإذعان، والحرص من الوقوع في التضليل والتمويه. أما غاية البلاغة: فهي حسن تأليف الكلم وتركيب المفردات الدالة على المعاني، وإجادة التعبير عنها. أما آلة الخطابي المنطق بخلافه البلاغي الذي يتخذ آلته النحو، ومضمون الخطابة مصادر الأدلة في الأجناس الثلاثة، ومضمون البلاغة الألفاظ والمعاني وتراكيب الكلم. **وإذا كان أمر البلاغة من الخطابة هكذا، فليت شعري، إنه ما عذر من تهاون في تحديد هذا الميز وتبيين هذا الشرخ.**